التسلسل : ١١ – ٣٠

اسم المادة : تاريخ الدولة الاموية

اسم المحاضرة: خلافة عبد الملك بن مروان (٦٥-٨٦هـ / ٦٨٥-٧٠٥م)

ولد عبد الملك بن مروان بالمدينة المنورة سنة (٢٦هـ) في خلافة عثمان بن عفان، وكان شديد السياسة حسِن التدبير للدنيا، وفي أيامه نقلت الدوواين من الفارسية الى العربية، وهو أول من نهى الرعية عن كثرة الحديث بحضرة الخلفاء ومراجعتهم.

ومن طريف ما قيل: ان عبد الملك لما أرسل يزيد بن معاوية الجيش لقتال اهل المدينة وغزو الكعبة، امتعض من ذلك غاية الامتعاض، وقال: ليت السماء انطبقت على الأرض، فلما صار خليفة فعل أشد من ذلك، فإنه أرسل الحجاج لحصار ابن الزبير وغزو مكة، وكان عبد الملك قبل الخلافة أحد فقهاء المدينة ويسمى حمامة المسجد لمداومته تلاوة القرآن، فلما آلت اليه الخلافة اطبق المصحف وقال: "هذا فراق بيني وبينك"، وتصدى لأمور الدنيا.

وقال يوماً لسعيد بن المسيب: (يا سعيد قد صرت أفعل الخير فلا أُسرَ به وأصنع الشر فلا أُساءَ به، فقال له سعيد: الآن تكامل فيك موت القلب).

أعماله:

اعتُبِرَ عبد الملك بن مروان المؤسس الثاني للدولة الأموية التي أشرفت على الزوال فانتشلها من الفوضى التي وصلت اليها وخلصها من الفتن التي كادت تطيح بها.

فقد كان عبد الله بن الزبير خليفة بالحجاز والبصرة، والمختار بن ابي عبيد الثقفي أميراً على الكوفة، ولم يبقى للدولة الأموية سوى الشام ومصر، وقد أخذ عبد الملك في مبدأ عهده بشن الغارة على أعدائه، ولم يمضِ سبع سنين حتى استقامت له الأمور وهدأت الأحوال.

روى المسعودي: ان عبد الملك سار في سنة (٦٦هـ) لقتال المختار بالكوفة وبينما هو في الطريق أتاه خبر مقتل القائد الذي أرسله لحرب ابن الزبير بالمدينةن ثم جاءه خبر مسير امبراطور الروم ونزوله المصيصة "وهي من ثغور الشام بين انطاكية وبلاد الروم بقرب طرسوس" في طريقه للشام وجاءه ايضاً ان عبيد دمشق واوباشهاخرجوا على أهلها وان المسجونين فيها فتحوا السجن وخرجوا منه، وان اعراب البادية اغارت على حمص وبعلبك وغيرها، أما أخطر الأخبار فهو خروج عمرو بن سعيد الأشدق الذي خلفه على دمشق عليه ودعا الناس الى بيعته وامتنع فيها، فكرَّ راجعاً لدمشق واجرى محادثات ومكاتبات مع الأشدق وناشده عبد الملك الرحم بينهما وان ما صنعه قوة لابن الزبير وأعداءه الأخرين وأطمعه بأن تكون ولاية العهد له من بعده فرضى وصالح.

وبقي عمرو بن الأشدق متحيزاً في خمسمائة فارس يزولون معه حيث زال، واستطاع عبد الملك بدهائه ان يستدرجه يوماً الى قصره ويفصله عن جماعته ويقتله ويرمي برأسه من أعلى القصر لأصحابه فماجوا قليلاً ثم رمى عليهم الدنانير ونثر عليهم الدراهم فتشاغلوا بها عن رأسه وعرض عليهم الأمان فأجابوا جميعاً بالسمع والطاعة. ثم خرج عبد الملك للصلاة فصعد المنبر وذكر عمرواً وخلافه وشقاقه فوقع فيه.

وفي سنة (٧٢هـ) خرج مصعب بن الزبير في اهل العراق لمقاتلة عبد الملك الذي خرج اليه في عساكر الشام والجزيرة وعلى مقدمته الحجاج بن يوسف الثقفي، وكان على مقدمة جيش العراق ابراهيم بن مالك الأشتر فالتقيا في أرض العراق قرب قرية مسكن على شاطئ دجلة فاقتتلوا حتى المساء، وقد أشرف ابراهيم بن مالك على الفتح لكن خيانة بعض قُواده وممالأتهم لعبد الملك بن مروان الذي شرى ذممهم بالأموال عجلت بنهايته فقُتل.

وسار عبد الملك في صبيحة تلك الليلة حتى نزل بدير الجاثليق (الكاثوليك) فالتقى بمصعب بن الزبير الذي تخلى من كان معه من مُضر واليمن والتحقوابعبد الملك بن مروان فبقي في نفر يسير وحاول عبد الملك ان يكسب وده لصداقة قديمة كانت بينهما تمتد لثلاثين سنة خلت وطلب منه ان يترك أخاه عبد الله ويوليه العراق (البصرة والكوفة)، لكنّ مصعب رفض ذلك وأصر على القتال فقاتل حتى قُتل وذلك يوم الثلاثاء لثلاث عشرة ليلة خلت من جمادي الأولى سنة (٧٢هـ) ودفن هو وابنه عيسى بدير الجاثليق.

وسار عبد الملك بن مروان حتى دخل الكوفة، روى المسعودي عن ابي مسلم النخعي قال: دخلت قصر الإمارة وإذا بعبد الملك بن مروان وامامه رأس مصعب بن الزبير فاضطربت اضطراباً شديداً رآه عبد الملك فسألني فقلت: دخلت هذه الدار فرأيت رأس الحسين (ع) بين يدي ابن زياد في هذا الموضع، ثم دخلتها في قابل الأيام فرأيت رأس ابن زياد بين يدي المختار، ثم دخلت فرأيت رأس المختار بين يدي مصعب بن الزبير، وهذا رأس مصعب بين يديك، فوثب عبد الملك وأمر بهدم تلك الدار وكأنه هو عامل هذه المقاتل.

حرب ابن الزبير

خرج الحجاج في جيش من الشام والكوفة يبلغ عشرين ألفاً لحرب ابن الزبير بمكة في شهر ذي القعدة سنة (٧٢هـ) حتى نزل بمنى ونصب المنجنيق على جبل ابي قبيس وسائر جبال مكة فحاصر ابن الزبير ومن معه في الحرم ورماهم بالحجارة، فلم يزل يرميه بالمنجنيق حتى هدم الكعبة، وكان ابن الزبير شديد البُخل فتفرق عنه جنوده حتى ان أخيه عروة بن الزبير مال الى عبد الملك وخرج اليه، وعرض الحجاج الأمان لعبد الله بن الزبير ومن معه فاستشار أمه أسماء بنت أبي بكر فرفضت ذلك وقالت: (أي بُني إياك ان تُعطي بيديك او تؤسَر مُتْ كريماً ولا تقبل خطة تخاف على نفسك منها مخافة القتل).

فجعل يقاتل اهل الشام فيهزمهم تارةً وتارةً يلجأ الى البيت، وتكاثرت عليه الرجال من اهل الشام فشُدخ بالحجارة فانصرع، وأمر الحجاج به فصُلب ثلاثاً او سبعاً، ثم جاءت أمه أسماء وهي عمياء تُقاد حتى وقفت لدى الحجاج وقالت: (أما آنَ لهذا الراكب ان يُنزل بعد؟)، فأمر به فأُنزل ودُفِن.

وكان عبد الله بن عمر قد جاوز الثمانين من عمره قد حمل السلاح مع ابن الزبير وخاف انْ يناله الحجاج بشر فقصده ليلاً يبايع لعبد الملك لكي لا يبيت تلك الليلة بلا إمام فبلغ من احتقار الحجاج له واسترذال الحال به أن أخرج له رجله من فراشه وقال له: اصفق بيدك عليها ففعل، وولي عبد الملك الحجاج الحجاز من سنة (٧٣ الى ٧٥هـ).

الحَجاج في المدينة

في سنة (٧٤هـ) سار الحجاج الى المدينة فأخذ يتعنت على اهلها ويستخف ببقايا من فيها من صحابة رسول الله (ص) وختم في أيديهم واعناقهم بالرصاص يذلهم بذلك لكنه لم يَعرض لآل أبي طالب لأن عبد الملك كتب إليه: (جنبني دماء آل ابي طالب، فإني قد رأيت المُلك استوحش من آل حرب حين سفكوا دماءهم)، فكان الحجاج يتجنب آل أبي طالب خوفاً من زوال مُلك آل مروان لا خوفاً من الله عز وجل.

ويأليت عبد الملك بن مروان كما أوصى عامله الحجاج بأن لا يتعرض لآل أبي طالب كان يوصيه بأن لا يهين رسول الله (ص)، فإن الحجاج لما رأى الناس يطوفون بقبر الرسول ومنبره قال: (تباً لهم إنهم يطوفون بأعواد ورمةٍ بالية هلّا طافوا بقصر أمير المؤمنين عبد الملك؟!! ألا يعلمون ان خليفة المرء في أهله خير من رسوله اليهم). ويا ليته أخذ بيده في سفك دماء آلاف الأبرياء على الظنة والشبهة، وكما تتبع شيعة أهل البيت (ع) واصحابهم.

الحَجاج في العراق

في سنة (٧٥هـ) ولّى عبد الملك الحجاج العراق وسار اليها في جيش من أهل الشام، وأبقى جيشه في القادسية ودخل الكوفة مع اثني عشر رجلاً فصعد المنبر متلثماً ولما تكاثر الناس كشف عن لثامه وخطب فيهم خطبة كلها استهتار وتوعد بأهل العراق لما كان منهم من شق عصا الطاعة وقال:

أنا ابن جلا وطلاع الثنايا متى اضع العمامة تعرفوني

يا أهل الكوفة: إني لأرى رؤوساً قد أينعت وحان قطافها وأني لصاحبها، وكأني أنظر الدماء بين العمائم واللحى.

وهذه الخطبة تبين السياسة التي رسمها الحجاج للسير عليها مع اهل العراق، وهي سياسة حزم ممزوج بالظلم والجبروت ولا غرور فقد أخذ الناس بغير هواده وقتلهم تحت كل حجر ومدر.

ثم سار الى البصرة وخطب بالناس خطبة لا تختلف في معناها ومرماها عن خطبته في الكوفة، ثم عمل على معاونة المُهلب بن أبي صفرة في حرب الخوارج، وبنى الحجاج مدينة واسط سنة (٨٦هـ) وسكن فيها.

أعماله الأُخرى:

أ- واجه الحجاج محنةً كبيرةً وخطراً شديداً حينما خلع عبد الرحمن بن الأشعث طاعته وانقاد اليه اهل كرمان والري والجبال لأنه أخشن اليه القول حينما ولّاه على رأس جيش لفتح المدن السابقة، فكرّ راجعاً بجيشه لخلع الحجاج من الكوفة، فاستنجد الأخير بعبد الملك طالباً النجدة فأمده بالجيوش والتقى بابن الأشعث في منطقة (دير الجماجم)، ودارت بينهما الحرب سجالاً حتى دارت الدائرة على ابن الأشعث فهرب الى بلاد الهند فأرسل الحجاج خلفه من يقتله فقُتِلَ هناك وأتى برأسه الى الكوفة، وأسرف الحجاج في قتل الأسرى، ومما زاد في خطورة هذه الثورة انتساب عدد كبير من قُراء أهل العراق اليها حتى سُميَت بثورة القُراء، وهكذا اخضع الحجاج بلاد العراق وما والاه من بلاد المشرق.

ب- أسند الحجاج ولاية خراسان للمُهلب بن أبي صفرة فقام بكثير من الفتوح في هذه البلاد، وأرسل أولاده لغزو الكثير من الأراضي المحاذية، فأرسل ابنه يزيد على رأس قوة لغزو الختل وأرسل حبيب الى رابنجان وبخارى، لكن المُهلب مات في ذي الحجة سنة (٨٠هـ) على مقربة من مرو الروز، وولى ابنه يزيد مكانه الذي استهل عده بغزو خوارزم.

ج- ولّى الحجاج قُتيبة بن مسلم الباهلي خراسان بعد يزيد فوصل الى مرو قبل نهاية سنة (٨٥هـ).

د- ألح الحجاج في قتال الخوارج وخاصة الأزارقة منهم، فما زال يهزمهم من منزل الى منزل وقد قَتَلَ منهم مقتلة كبيرة.

المصدر: عبد القادر أفندي بدران، مختصر تاريخ دمشق